الهجـــرة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

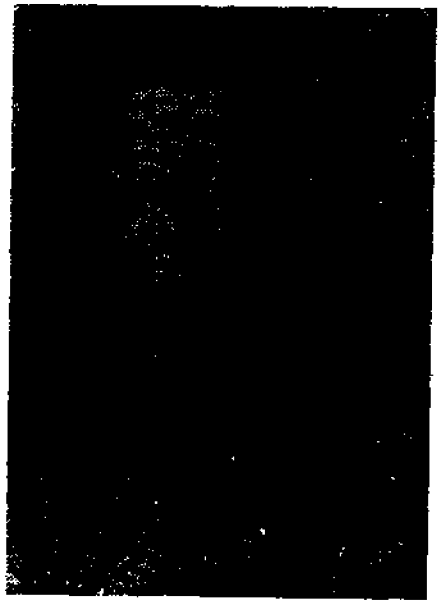

يبدو لي من مراجعة السيرة النبوية الشريفة أن الهجرة إلى المدينة لم تجئ عفواً ولا كانت من وحي الساعة، وإنما كانت خطة محكمة التدبير طال فيها التفكير بعد أن اتجه إليها الذهن اتجاهاً طبيعياً أعانت عليه الحوادث

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في أول الأمر يشير على المسلمين الذين ضاقوا ذرعاً بما كانت قريش تنزله بهم من الأذى أن يتفرقوا في الأرض، وينصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ليأمنوا الفتنة عن دينهم ويرتاحوا من العذاب الغليظ الذي كانت قريش تصبه عليهم حتى يأذن الله بالفرج. وأكبر الظن أنه كان يريد أن يؤمّن هؤلاء المسلمين على دينهم من ناحية، وأن يحمل قريشاً على التوجس من عاقبة هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة عسى أن تفيء إلى الاعتدال والهوادة. ومن الثابت على كل حال أن قريشاً أزعجتها هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فبعثت إلى النجاشي برسولين منها ومعهما الهدايا ليقنعاه برد هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكني لا أظن أنه كانت لهذه الهجرة إلى الحبشة غاية أبعد من ذلك، فما كانت أكثر من معاذ إلى حين، وتدبير ألجأت إليه الحاجة لما اشتدت المحنة بالمسلمين، وتلويح لقريش بامكان العون والمدد من هذه الناحية. على أن بعد الحبشة واختلاف أهلها وانتها ودينها ثم الثورة التي ما لبثت أن شبت على النجاشي وكان من أسبابها إيواؤه المسلمين والعطف عليهم — كل هذا كان من شأنه أن يصرف عن الحبشة ويدعو إلى التفكير فيما هو أصلح منها

واختلف الحال في مكة أيضاً إلى حد ما بعد أن أسلم عمر ورفض الاستتار والاستخفاء، وشرع يناضل قريشاً ويدفع المسلمين إلى الصلاة في الكعبة نفسها، وأسلم رجال غير قليلين من قريش، فصارت لحاجة قريش في تعذيب المسلمين وتقتيلهم كما كانت تفعل غير مأمونة العاقبة. ثم ظلت قريش تؤذي المسلمين وتسيء إليهم، ولكن المسلمين كثروا وصار محمد يعرض نفسه على القبائل وإن كان لم يفز بطائل كبير ولا كفت قريش عن مساءاتها إليه

وقد كبر الشأن واتسعت رقعة الأمل، ولكن التفكير في أمر قريش وفي الراحة من عنتهم وفي الوسائل المؤدية إلى نشر الدين بأسرع مما ينتشر بقي واجباً ملحاً، ولا سيما بعد أن حوصر المسلمون في الشِّعب، ونقضت الصحيفة، ومات أبو طالب وخديجة، وازداد أذى قريش، وردته القبائل عما كان يدعوها إليه من الدخول في الإسلام؛ وتوالت السنون على هذا الحال، فكان من الطبيعي أن يفكر النبي عليه الصلاة والسلام في مخرج حاسم يفرج الكرب ويزيل المحنة ويفسح مجال الأمل ويوطد الأمر. وأحسب أن من الطبيعي والمعقول أن يفكر في يثرب أول ما يفكر، وأن تكون هذه أبرز ما يبرز وأول ما يخطر على البال وأسبق ما يرد على الخاطر، فقد كانت يثرب طريقه في الزمن السالف أيام كان

وتجارب ومعرفة. وعلى الرغم من مرور كل هاتيك السنين لم تتقدم غير خطوات قليلة في ميدان الرفق بالأطفال. فثلاثة أرباع أطفالنا إما مصابون بداء الجهل والأمية وهو أصل كل شقاء، وإما جياع حفاة عراة تموج بهم الطرقات، وإما مرضى بأدواء شتى بسبب إهمالهم وحرمانهم حتى من ماء الشرب النقي. وأخشى كثيراً أن نظهر في مؤخرة الأمم في الحضارة والرقي إذا اعتبرنا مقياس التقدم الحقيق هو مبلغ تغلغل مبادئ العطف والانسانية التي تقل مظاهرها لدينا لسوء الحظ

وفي ضوء هذه المآسي، ولشعورنا بما قدمنا وما أخرنا، يبدو لنا الماضي عظيماً حقاً، فنتجه إليه بإعجاب وخشوع، ونتحدث عن آثاره حيناً من الدهر نشعر بعده بشيء من راحة المعترف بالفضل المقر بالذنب

أسماء فهمي
الأستاذة بمعهد التربية. درجة شرف في التاريخ ودرجة الأستاذية في التربية من انجلترا

يعمل في التجارة، ولم تكن طريقه فقط بل كانت له بها علاقة تجارة أيضاً؛ وله فيما عدا ذلك بعض ذوي القربى ونعني بهم أخوال جده من بني النجار؛ ثم إن أباه عبد الله بن عبد المطلب مدفون فيها، وقد كانت أمه في حداثته تزور هذا القبر في كل عام، وكانت تستصحب ابنها معها. وقد شاء القدر أن تمرض أمه وهي عائدة من إحدى هذه الزيارات وأن تموت وتدفن في الطريق بين مكة ويثرب. فما من شك في أن يثرب كان لها نوطة بقلبه وعلوق بنفسه فما يسعه أن ينسى طفولته ويتمه وأباه الدفين هناك وأمه الراقدة في الفلاة على طريقها

وقد كان النبي صلوات الله عليه يعرض نفسه على القادمين من يثرب كما كان يعرض نفسه على رجال القبائل الأخرى، فأسلم أولا من الأوس واحد، ثم أسلم من الخزرج نفر استجابوا لدعوته وحدثوه بما بين الأوس والخزرج من العداوة التي بثها اليهود فيهم ليظفروا بهم ويتحكموا فيهم. وكان اليهود قد نجحوا في إيقاد نار الفتنة بين هاتين القبيلتين، ولكنهم نجحوا في أمر آخر لم يكونوا يقصدون اليه، فقد كان اليهود وهم أهل كتاب يذمون إلى الأوس والخزرج ما هم فيه من الوثنية والشرك ويحدثونهم عن دينهم وكتابهم، فتركوا في نفوسهم أثراً روحياً لم يكن لمثله وجود في أهل مكة. وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام هذا كله وعرف أيضاً أن الفريقين المتعادين — الأوس والخزرج — قد فطنوا إلى ما هم فيه من الشر، وانتهوا إلى أن يجمعهم الله بعد طول العداوة، وأدرك أن دعوته خليقة أن تلقى هناك من حسن الاصغاء وطيب القبول ما لا تظفر بمثله في مكان آخر وبلد غير يثرب. وقد صدق ظنه وتفتحت القلوب في يثرب لدعوته؛ ولم يمض إلا عام واحد حتى جاءه رجال من يثرب يبايعونه البيعة التي تعرف ببيعة العقبة الأولى على ألا يشركوا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله. ومما يدل على قيمة هذه البيعة أن النبي احتاج أن ينفذ إلى يثرب من يقرىء المسلمين بها القرآن ويعلمهم ويفقههم في الدين. وكانت هذه فاتحة ميمونة لانتشار الاسلام في يثرب على صورة جدية وفي نطاق واسع

وكان مقام المسلمين في يثرب طيباً محموداً لا أذى فيه ولا مشقة، فغير معقول ألا يفكر النبي في اتخاذ يثرب مهجراً للمسلمين الذين يعانون الأمرين في مكة، ولنفسه أيضاً إذا كان لا بد من ذلك ولا معدى عن ذلك … إن التفكير في ذلك هو تفكير يبعث عليه ويوحي به واجب الدفاع عن النفس. يدل على ذلك أن النبي في العام التالي — لما قدم مكة عشرات من مسلمي يثرب — لقيهم واقترح أو طلب أن يعقد مع مسلمي يثرب حلفاً دفاعياً لرد عدوان المشركين. وقد تم له ما أراد وعقدت بيعة العقبة الثانية وهي أول تدبير عملي في سبيل الدفاع عن النفس. وقد أزعج خبرها قريشاً جداً فاضطربت وأشفقت وذهبت تسعى لتستوثق من الخبر، فان صحة الخبر معناها ذهاب كل أمل في التغلب على النبي … وقد بلغ من جزعهم من هذا الحلف وصحة تقديرهم لعواقبه المحققة أن قريشاً ائتمرت بالنبي تريد قتله ودبرت ذلك فعلا وأحكمت التدبير كما هو معروف مشهور، فأدى ذلك إلى التعجيل بهجرة النبي نفسه

وقد كانت الهجرة في سبيل الله وللدفاع عن النفس ولكنها أدت إلى أمور شتى. فقد كان النبي في مكة حسبه أن يتقي أذى قريش ويتجلد ويصبر على عنتهم واضطهادهم، فلما هاجر لم يبق لمثل هذا الصبر مسوغ، ولا بالمسلمين إليه حاجة، وقد كثروا وصارت لهم قوة من جموع الأنصار والمهاجرين معاً. ففي وسعهم أن يردوا الأذى بالأذى ويقابلوا العدوان بالعدوان. ثم إن كثرة المسلمين في يثرب جعلتهم جماعة يجب فضلا عن تثقيفهم في الدين تنظيم أمورهم والنظر في مصالحهم وإقامة علاقاتهم بغيرهم على قواعد مرضية. وقد بدأ التشريع الاسلامي بعد الهجرة، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح، وبدأ التعرض لتجارة قريش. ولا حاجة بنا إلى التفصيل فانه تاريخ معروف؛ ويكفي أن نقول إن الهجرة أتاحت للمسلمين أن يكونوا أمة، وأن ينتظموا كما تنتظم الأمم، وأ كسبتهم مركزاً تسنى لهم بفضله أن يتحكموا في مكة اقتصادياً وحربياً أيضاً؛ وقد انتهى الأمر بالفعل بفتح مكة وإعلاء كلمة الله

ويكفي للدلالة على ما كان للهجرة إلى يثرب من قيمة في التاريخ الإسلامي أنه لما أريد بعد ذلك تأريخ الحوادث أشار عمر ابن الخطاب رضي الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأً لهذا التاريخ. والواقع أن هذه الهجرة كانت هي الباب الذي فتحه الله لنشر الدين وإعلاء شأنه والقضاء على الشرك والكفر، وجعل من العرب أمة لها في العالم مقام وفي حياته أثر. ولو أن الهجرة كانت إلى الحبشة لما أثمرت شيئاً من هذا، ولخرج الأمر على كل حال من جزيرة العرب، ولكان الأرجح ألا ينتقل العرب إلى حال أخرى.